شمس الأئمة

بقلم أحمد الجوهري عبد الجواد

شمس الأئمة

خرج محمد ذو الأعوام الخمسة من البيت إلى الشارع يجري، تسابق قدماه الريح، وذلك حينما سمع الصوت المميَّز لديه ..

كانت أمه تقف خلف الباب تنظر وتبتسم في سعادة لصنع ولدها الصغير، وقد أدركت الأمر، فلم يكن ذلك بالجديد على صغيرها الذي كان كلما سمع ذلك الصوت انطلق ليلقى والده على مشارف البلدة الصغيرة، فما كان ذلك الصوت المميز لديه إلا بمثابة الإعلان عن وصول القوافل التجارية، وكان والده إسماعيل أحد أولئك التجار المرموقين في ناحيتهم في رؤساء هذه القوافل، ومن عادة الصغير إذا علم بوصول والده أن يكون أول من يستقبله من أهل البيت..

تابعت الأم ولدها بناظريها حتى غاب في زحمة الناس، ثم عادت إلى عملها تسرع في إنجاز ما تبقى لها من شئون البيت لتستقبل زوجها، وهي على يقين بأنه سيكون هنا في غضون ساعتين، تلك عادته التي لا تتخلف منذ سنوات

تمتمت بين نفسها بكلمات، ثم عاودت فارتفع صوتها بمثلها، كانت تقول: فلنعم التاجر ولنعم الرجل، الحمد لله الذي رزقني بمثله ثم أقر أعيننا عاجلًا بنعمة الولد، اللهم احفظ زوجي وارزقه برزقنا وبارك لنا فيه واجعل لنا أحمد ومحمد وإخوتهما خير ذرية واجعلهم مباركين وانفع بهم العباد والبلاد.. آمين.

وصل محمد إلى مشارف البلدة وعلى صخرة عالية هناك وقف يشاهد قوافل التجار وهي تمر عابرة باب السور تدخل القرية واحدة بعد الأخرى، ثم لمح راية بيضاء فوق بعير ضمن قافلة فأشرق وجهه وافترّ ثغره عن ابتسامة جميلة، وظل يتابعها حتى حاذت السور ثم دلفت إلى الباب وهنا نزل يتقدم نحوها مسرعًا حتى إذا وصلها جال ببصره يمنة ويسرة فلمح والده في مؤخرة القافلة فأقبل إليه يسعى مسرورًا وأبصره والده فأقبل إليه هو الآخر يشتد فاتحًا ذراعيه عن آخرهما حتى احتضنه بين يديه وضمه إلى صدره ورفعه في الهواء مرارًا يمازحه ويلاعبه..

-أهلًا بك يا أبي، حمدًا لله على سلامتك.

-مرحبًا بك يا محمد، الحمد لله، بارك الله لك وسلمك الله من كل سوء... منذ متى وأنت تنتظر هنا يا محمد؟

-من ساعة يا أبي، بحثت عن قافلتك في القوافل فوجدتها في أوسطها، ثم بحثت عنك في القافلة بين الرجال حتى وجدتك في آخرهم!

-تلك عادتك يا محمد، وهي عادة طيبة!

-أشتاق إليك يا أبي، تطيل السفر، ثم تحضر فما إن أسمع الإعلان عن وصول القوافل حتى أطير إلى هنا شوقًا لرؤياك قبل جميع الناس، ولأملأ عيني منك فأعوض الأيام الماضية.

-وأنا والله أشتاق إليك، وأدعو لك ولإخوتك في سفري، وأيضًا أشتري لك الهدايا التي تحبها.

-بارك الله لنا في عمرك يا أبي وفي رزقك ودام فوقنا ظلك ولا حرمنا عطاءك.

-آمين، اللهم استجب، هيا اذهب فبشر والدتك يا محمد، وأنا بعد ساعة سأكون في البيت، ريثما أرتب البضائع في المخازن وأسلم أمانات التجار.

-لبيك يا أبت، لكن لو تسمح لي بسؤال قبل أن أذهب سألتك!

كان إسماعيل يعرف في ولده محمد النجابة والفطنة الفائقين فعلم أنه سؤاله ليس شيئًا يعطله عن عمله ولا لغوًا يؤثر عليه غيره أو يؤجله، فنظر إليه مشجعًا وقال :

-تفضل يا محمد، قل وأنا أسمعك!

-لماذا يا أبت تكون في آخر القافلة وأنت رئيسها؟

ارتسمت على وجه الوالد ابتسامة كبيرة واقترن ذلك بمد يديه يحمل محمدًا من فوق الأرض فوضعه على يده وألصقه بصدره وظل يقبله وهو يقول: قد علمت أن لك قلبًا عقولًا، ولسانًا سؤولًا، وعينًا لمَّاحة، وأسأل الله أن ينفعك بك أمة الإسلام، هذا أملي منك وأسأل الله أن يحققه لي.

ثم قال: جواب سؤالك يا محمد: هذه سنَّة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فإن إذا كان مع أصحابه في طريق الذهاب إلى الغزوة يكون في المقدمة، وإذا كانوا قافلين في العودة يكون في المؤخِّرة.

تدري لماذا يا محمد؟ يكون في المؤخرة؛ ليتفقد الضعيف من الناس وليحمل عن العاجز ويساعد من يحتاج المساعدة، وحين يغزو يكون في المقدمة لماذا؟ ليشجع الناس ويرونه فيتأسون به ويقدِمون؛ لأن المقدمة تدل على الشجاعة، وعلى قوة العزيمة.

هيا الآن لتدرك أمك فتخبرها، فإن أباك جائع لتجهز الطعام.

مضى محمد يهز رأسه ويقول: لقد فعلت يا أبت، قد ذبحت خروفًا سمينًا، وجهزت طعامًا لذيذًا، ثم سلم على والده وأسرع يعدو إلى البيت بينما انصرف ((إسماعيل)) يتمتم بكلمات تظهر حروفُها سلسلة من الدعاء لولده أن يبارك الله فيه وأن يتولَّاه.

وصل ((محمد)) إلى البيت فوجد أمه وإخوته بانتظاره، مجتمعين يتحدثون، ما إن رآه أخوه أحمد حتى ابتسم وقال:

-عند محمد الخبر اليقين.

نظر إليه محمد وسأله: وما ذاك؟

فأجابته أمه في عجلة: متى يأتي أبوك يا محمد؟

فقال: أبشروا، لن يمضي كثير وقت حتى يكون أبي هنا، بمشيئة الله، وأيضًا سيأتي معه بالهدايا.

-الهدايا، قد أخبرك أبوك إذن بما أحضره لك!

-لا والله يا أحمد، قد أخبرني بأنه اشترى لنا الهدايا، كما هي عادته، ولم أسأله عن شيء آخر، فإني أستحيي أن أسأله عما لم يخبرني عنه، إلا أن يكون علمًا أتعلمه.

-ولم يا محمد!

-أخبرني شيخي بذلك يا أمي، ما كان في غير العلم فهو فضول وتركه أولى من السؤال عنه، وقد يجر إلى ما لا يستحب، أما في العلم فالأمر مختلف، وفي الحديث: "إن الله لا يستحيي من الحق" وفي الأثر عن مجاهد رحمه الله أنه قال: "لا يتعلم اثنان؛ مُسْتَحْيٍ ومستكبر"، أليس كذلك يا أخي!

-بلى يا محمد، صدقت وبررت، وإني لفخور بك وبحفظك وأدبك يا محمد، زادك الله وزانك.

-بارك الله فيكما يا ولديَّ ونفع بكما وأجزل مثوبتنا فيكما.

قالت الأم هذا وقامت إلى ما بقي لها من شئون المنزل، بينما بقي محمد وأحمد يتحادثان، بانتظار وصول والدهما.

لم يمض وقت طويل على انتظارهما إذ سرعان ما سمعا صوت الباب يُطرق وصوت أبيهما من خلفه يناديهما فقاما إليه مسرعين ففتح أحمد الباب واحتضنه والده وقبله وكذا فعل بمحمد وهو يمازحه قائلًا: لا مانع من مرة أخرى.

وحضـرت الأم فسـلم عليها الوالد وبثها أشـواقه، وكانت قد فرغت من إعداد الطعام فسـاعدها الجميع في وضعه على المائدة وجلسوا يأكلون، وأثناء ذلك دارت بينهم الأحاديث وتطرقوا إلى كل شأن حتى قال الوالد:

-كيف حالك يا محمد عند الشيخ ((أبي حفص)) في الكُتَّاب؟

-الحمد لله يا أبت، بخير، أجتهد في تنفيذ كل ما يطلبه مني وأبذل غاية جهدي في تحصـيل ما يمكنني تحصيله.

-جميل يا محمد، بارك الله علمك وعملك وسـدَّد فهمك... ثم التفت في جدية بعد أن رآهم أعرضـوا عن الطعام في شـبع وأصـغَوا إلى حديثه في شـوق وقال لهم: يا زوجتي الكريمة ويا أبنائي الأحباب اسـمعوني جيّدًا فإني أريد أن أفضـي إليكم بحديث لم أحدثكم إياه من قبل، وأريد أن تحفروا ألفاظ ما أقول في قلوبكم وتعيه أفئدتكم ويكون بين أعينكم تتذكرونه ولا تنسونه أبدًا.

انجذب الجميع لحديث الأب في اهتمام بالغ وتابعت عيونهم شـفتيه انتظارًا لما يقوله.. فاعتدل الأب في جلسته وقال :

منذ سنوات عديدة يا أعزائي كنَّا أهل بيت يدين بغير الإسلام، فمن الله تعالى علينا واعتنق جدُّنا (المغيرة) هذا الدين الحنيف، فدخلت علينا السـعادة، ورزقنا الصـفاء، ووسـع علينا الرزق وحل علينا رغد العيش.

وها نحن كما ترون بفضـل الله تعالى نسـعى ونروح في فرح وسـرور مع رزق وفير وعيش رغيد، مع زوجة وأبناء طيبين لكن ليس هذا لم يكن قط أملي من الحياة.. فهذه كلها وسـائل إلى الأمل الذي أتمنَّاه وأرجوه.

نظر أحمد إلى والده وتساءل:

-وما هو ذلك الأمل يا أبتاه؟

-منذ ذلك الحين الذي حدثتكم به يا بني وغاية أمانينا من الدنيا أن نخدم هذا الدين الذي سـعدنا في جواره ليرضـى الله عنا، وقد وعيت على الدنيا فوجدت جدِّي رحمه الله تعالى ثم أبي يوصـياانني بأن أبذل كل جهدي في كل خير من شـأنه أن يزيد هذا الدين رفعة ويحقق عزَّه، والحمد لله تعالى قد سـعيت في هذا قدر ما أمكني، لقد سـعيت إلى عواصـم الإسـلام الكبرى والتقيت أئمة الإسلام العظام واشتغلت بالعلم والتحصيل وحملت عنهم علمًا وحدثت عنهم لكني أجد في قلبي الشوق إلى فعل ما لم يفعله أحد وتقديم ما لم يقدمه أحد، والحال كما تريانها أني قد

صرت في شغل عن تحقيق ذلك الأمل، ففكرت: إذا ما لم يستطع الإنسان تحقيق أمله بنفسه فإنه لا يعجز أن يحققه بواسطة أبنائه فإن عمرهم بالنسبة إلى عمره هو امتداد له، وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((إذا مات ابنُ آدمَ انقطع عملُه إلا من ثلاثٍ : صدقةٍ جاريةٍ , أو علمٍ يُنتفَعُ به , أو ولدٍ صالح يدعو له)).

-أدامك الله فوق رؤوسنا يا أبا الحسن !

-رزقك الله الصحة ووهبك العمر المديد مع حسن العمل يا أبي!

-شكر الله لك يا أم الحسن، ولك يا أحمد.

تابع الأب حديثه في هدوء وتركيز، فتابعته الآذان مصـــغية لكلامه وهو يقول: وما زلنا يا بَني ونحن في هذه الديار نسمع شيوخنا ومعلِّمينا يذكرون لنا حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله -صـلى الله عليه وسـلم-: «لو كان الدين عند الثُّريَّا لذهب به رجلٌ من فارس -أو قال من أبناء فارس- حتى يتناوله»، وقد سمعت علماءنا يتحدثون بهذا الحديث فمنهم من يقول: قد ظهر ذلك بالعيان حين ظهر الدين في بلادنا هذه وكثر فيها العلماء وكان وجودهم كذلك دليلا من أدلة صدقه صلى الله عليه وسلم فيما أخبر.. لكن الذي غلب هذا التفسير قول آخر يعتبر هذا الحديث نبوءةً لم تتحقق وأنها آتية وأن المقصـود بهذا الحديث رجل من بلادنا هذه يفيد هذا الدين بخدمة ويقدم له عملًا لم يفعله أحد ســبقه ولا يدركه أحد لحقه وإنَّ أملي يا أبنائي الكرام من هذه الدنيا أن يكون لي نصـــيب في هذا الرجل فيكون من أبنائي وذريتي وإني أحدثكم اليوم بهذا الحديث لتعرفوه فإن يكن أحدكم فإني أحمد الله تعالى على ذلك، وإن لم يكنه فليعمل كل منكم على أن يكون من أبنائه.

ثم التفت إلى زوجته وقال:

-ما سعيت ولا اتجرت ولا عملت ولا تعبت يا أم الحسن إلا من أجل هذا الهدف، وإني لأحب أن أبذل مالي هذا كله لله على أن يكون هذا الرجل من أبنائي، وما هذا المال كله إلا شـيء قليل في تحقيق هذه الأمنية، فإن أعش لكم فإني ســـاعٍ في تحقيقها راجٍ ربي في أن يقر عيني بها، وإن أمت فالله الله في هذا، فإنها أمانة أضـــعها في رقبتك، واســـتعيني على ذلك بمالي هذا كله وإني والله ما جمعت درهمًا فيه إلا من حلال، ما أعلم فيه درهمًا من حرام ولا درهمًا من شبهة.

-بارك الله لك في مالك وعمرك ومدَّ في أجلك يا أبا الحسن، وتقبَّل دعاءك بصلاح ذريتك، نعم إن شاء الله نسعى لهذا كلنا معًا، فأنا وأنت نسدد ونقارب، ويجتهد أحمد ومحمد في تحصيل العلم وخدمة الدين بكل ما يسعهما من جهد.

نظر الأب إلى ولديه وقال: وعيتما ما قلته يا أحبابي؟

فقال: نعم، يا أبت!

فتابع: ولي عندكما هذا الوعد بالجد والاجتهاد؟

-نعم يا أبت.

هزَّ الوالد رأسه وقال: الحمد لله تعالى، قد أفضيت بهذا الحديث إليكما، وقد كنت أتحيَّن له الفرصة المناسبة، وإن أمت بعد هذا فإني أموت مستريحًا، وأنا أرى أملي هذا في أعينكم يتجدَّد .

قال هذا ثم نهض وهو يودعهم: سأمرُّ على دار الحديث وأنا في الطريق إلى المسجد ثم أصلي العصر وأقضي بعض الشئون قبل المساء.

في دار الحديث التقى إسماعيلُ الشيخَ ((أبا حفص)) فسأله عن أحوال تلميذه الجديد ((محمد)) فأخبره أنه شديد الإعجاب به، لأدبه وذكائه ووفور ذهنه، وكان الأب يستمع في انتباه لما يقوله تلميذه عن ابنه، فلما انتهى أوصاه به خيرًا، وأن يكفله ويرعاه كابنه، وذكره بما يكون في ميزان حسناته من نبوغ هذا الطالب واجتهاده إن كان شيئًا مذكورًا، وإنه ليرى فيه أنه كائن، بمشيئة الله، فلا يألو جهدًا ولا يدخر وسعًا دون محمد فإنه يحمد ذلك فثي الدنيا والآخرة إن شاء الله.

استمع أبو حفص لكلام شيخه باهتمام حتى انتهى ثم وعده بأن يبذل ما في وسعه ليحصِّل محمد العلم والخير راجيًا أن يكون له الأجر على كل ما قاله شيخه أبو الحسن.. ثم قال: لو وجدت بعض الوقت لديك يا سيدي قصصت عليك رؤيا رأيتها في منامي أمس، فعبرتها لي، بارك الله في عمرك وعلمك!

فقال أبو الحسن: خيرًا رأيت يا أبا حفص، وخيرًا يكون إن شاء الله تعالى.

فهز أبو حفص رأسه وقال: إن شاء الله يا شيخنا، إن شاء الله، ثم تابع:

رأيت الليلة في منامي رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، عليه قميص، وامرأة إلى جنبه تبكي، فقال لها: لا تبكي، فإذا متُّ فابكي.

فماذا يعني هذا يا سيدي؟

أشرق وجه أبي الحسن بابتسامة وقال: إن السنة قائمة بعدُ يا أبا حفص!

وكأنما ساق الله إليك هذه الرؤيا لأعزّز بها ما كنا نتحدث فيه الآن من القول، وأتمنى أن يكون لولدي هذا من رؤياك هذه نصيبًا.

أمَّن أبو حفص على دعاء شيخه، وشكره على تعبير رؤياه

ثم ودعه أبو الحسن وغادر دار الحديث في طريقه إلى صلاة العصر في المسجد، وبعد الصلاة ذهب إلى مخازنه فالتقى العمال ومن كان من التجار هناك في عجلة، ثم عاد أخيرًا إلى البيت مع المساء فوجد أهل البيت بانتظاره فتحاوروا ساعة ثم قاموا إلى صلاة المغرب والعشاء ورجعوا فأخلد الوالد إلى النوم مبكرًا ليزيل عنه عناء السفر، وسرعان ما لحقه الجميع فراحوا في نومهم هانئين.

عند الفجر قام الأب والأبناء فأدوا الصلاة في جماعة المسجد وانتظروا إلى إشراقة النهار ثم قفلوا إلى البيت عائدين، وما إن دلفوا إلى الداخل حتى نادى الوالد:

-يا أم الحسن!

خرجت أم الحسن تسعى وهي تشعر بشيء غريب في صوت زوجها، أكد شعورها ذاك ما رأته في وجهه من الإعياء، فقالت:

-مالك يا سيدي؟!

-أشعر بتعب شديد وأحتاج إلى الراحة قليلًا، لكني لن أنام فليس في عيني نعاس، فكونوا إلى جواري أحدثكم وآنس بكم، إن لم يكن بيد أحدكم عمل فينصرف إليه.

قال هذا ثم ترنح فجأة يريد أن ينقض على الأرض واقعًا، فأسرعت الزوجة تسند زوجها من جهة ويسنده أحمد من الجهة الأخرى واتجهوا نحو السرير وتقدم محمد ففتح باب الغرفة، وهناك على السرير استلقى الوالد في إعياء شديد تجهده أنفاسه التي تخرج متسارعة، ولم يتكلم بعدها بكلام كثير، لكنه أشار إلى محمد ليتلو عنده بعض القرآن، ثم أشار إلى أحمد إشارة فهمها على الفور، لقد كان والده يريد كتابًا من المكتبة فقام يضع يده عليها واحدًا بعد الآخر، فبدرت كلمة ((سفيان)) من بين شفتي والده ففهم أحمد أنه يريد ((جامع سفيان الثوري)) فالتقط الكتاب وعاد إلى جوار والده في هدوء فأشار إليه أن اقرأ ففتح أحمد الكتاب وظل يقرأ مدة والجميع

جلوس يستمعون، ثم وجدوا الوالد يرفع بصره ويشير بأصبعه إلى السماء يدعو، ثم سقطت اليدان وأسلمت الروح إلى بارئها.

***

"مات الرجل التقي الورع الذي تصاغرت أنفس العلماء إليهم برؤية علمه وعمله وتحرّيه الحلال في كَسْبه، مات صاحب ((مالك)) وتلميذه، ومعلم العراقيين، مات تلميذ حمَّاد وأبي معاوية، وأستاذ أبي حفص ونصر بن الحسين... مات في ريعان فتوَّته وترك من خلفه أحمد يناهز الصِّبا، ومحمدًا لم يبلغ بعد السادسة من عمره."

كانت أم الحسن تحدث نفسها بهذه الكلمات بعد رحيل زوجها بأيام، فقد كان قلبها يحزن لفراقه، وعينها تدمع، لكنها كانت تحتسبه عند ربها راضية مرضية بقضاء الله وقدره فلا تقول إلا ما يرضي الله ويرضى الله به عنها، ولقد وجدت البشرى في قبول الله له بمن وفق الله لحضورهم إيَّاه، والصلاة عليه، وتشييعه، ودفنه، من علماء وعباد لم يتركوا شيئًا حسنًا إلا قالوه بشأنه وأثنوا عليه به، وهؤلاء هم شهداء الله في الأرض.

الحمد لله كثيرًا، على ما أعطى وما أخذ، وسلام عليك يا أبا الحسن في الخالدين، وإني على طريقك ماضية، وفي سبيل تحقيق غايتك وأملك لصابرة مصابرة.

قطعت تفكيرها طرقات خفيفة على الباب، فعلمت أنه ((محمد)) قد حضر من الكُتّاب، فقامت تفتح وهي تحاول أن تزيل آثار الدموع عن عينيها وخدَّيها، وبالكاد استقبلته هاشَّة، فسلم عليها ورحب بها وسألها عن حالها وسألته، ثم أحضرت له ماء فشرب ووضعت الطعام الذي جهزته له في جرابه، ليعاود الخروج ثانية، فودعته إلى الباب وهي تقول: بارك الله لك في وقتك وسدد فهمك ونفع بك وحفظ عليك عقلك وعلمك!

خرج محمد وهو يقول: آمين، سلمت يا أمي، تقبل الله دعاءك، وكتب لك بمثله!

كانت هذه عادة محمد منذ مات والده قد ضاعف جهده مرتين أو ثلاث، وصرف وقته كله لتحصيل العلم لا يكاد يدخل البيت إلا لطعام وشراب ومنام في آخر الليل، أما باقي النهار فهو في الكُتّاب يتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن لدى الشيخ، وظل على هذا سنتين ختم خلالهما القرآن وكرره مرات، حتى قال الشيخ له: بلغ أمَّ الحسن عني أنك قد ختمت القرآن ولم تعد بحاجة إلى معلِّم يعلمك القرآن فإنك قد صرت اليوم فيه بدرجة معلِّمك.

فلما بلغت الكلمات أمَّ الحسن طارت فرحًا، وأرسلت أخاه ((أحمد)) إلى الشيخ ((أبي حفص)) يستأذنه أن يبدأ ((محمد)) القراءة عليه في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستحسن

طلبها وعظَّمَه وأجابها إليه، وصـــار البخاري يذهب إلى كتَّاب ((أبي حفص أحمد بن حفص)) فيما بعد يقرأ الحديث ويحفظه، وكان أحب الكتب إليه يومئذ ((جامع سـفيان)) ذلك الكتاب الذي كان والده هو الآخر يجلُّه وكان آخر عهده بالدنيا سماع أحاديثه.

كانت أمنية أبي الحســن التي حدث بها زوجه وأبناءه ماثلة أمام عيني الزوجة الوفية ليل نهار، لا تخطئ تتذكرها وتحرص على الاقتراب منها وكذلك كان يفعل ابناها ولم تغب عن بال الزوجة المباركة قط كلماته وهو يفارق الحياة حين أدناهم ليوصيهم وصيته الأخيرة ويجدد فيهم التذكرة بأمله وحين أمال رأس محمد خاصـــة لتصـــل الكلمات أذنيه وكأنه ينجذب إليه انجذابًا، ويخصـــه بالكلمات دون من حوله قائلًا له: "لقد تركت لك ألف ألف درهم، لا أعلم منها درهمًا من حرام، ولا درهمًا من شـــبهة، وإني لأحب أن تنفقها جميعًا في تحصـــيل العلم وفي ســـبيل تحقيق هذا الأمل.

وكان الشـيخ ((أبو حفص)) إذا سـمع هذا قال: رحمه الله تعالى، وأصـدق ما يكون الرجل عند الموت.

ثم يوصـــي محمدًا بالجد والاجتهاد، ويفرح إذ يجد من محمد طاعة لكل ما يقوله وامتثالًا لما يرشده إليه.

كان محمدٌ على عادته من الدأب والجد والاجتهاد يخرج كل يوم إلى صـــلاة الصـــبح فلا يعود حتى يتوسـط النهار، فيأتي لرؤية أمه وتزوده بالطعام ليعاود الذهاب مرة أخرى حتى العشـاء، وكانت أمه على عادتها من تشـــجيعه وحثِّه على التعلم ووصـــيته إذا خرج، ومســـاعدته بما تسـتطيعه إن حضـــر، والدعاء له من ورائه إذا ذهب، حتى كان يوم من الأيام ولمّا يبلغ محمد العاشـرة من عمره، كانت قد ودعته للخروج إلى درسـه فما إن خرج من البيت ومضـى وقت قليل سمعت والدته الباب يطرق طرقًا قويًّا متتابعًا فخرجت فزعة تنادى :

-من؟ من الذي يطرق الباب بهذا الهلع!

-افتحي يا أم الحسن، افتحي الباب!

ميَّزت أم الحسن صوت بعض جاراتها في جملة الواقفين بالباب ففتحت الباب مسرعة وقالت:

-ماذا حدث؟

-ابنك محمد، يا أم الحسن!

-ماذا به؟ يرحمك الله!

-قد اصـــطدم بالجدار فوقع على الأرض في الطريق وحمله بعض الرجال وهو عند الطبيب الآن، فأسرعي حتى تكوني إلى جواره.

أسرعت أم الحسن إلى الداخل، فارتدت ملابسها، وخرجت تسعى، معها جارتها تلك ترافقها، وأوصـــت من بقي من الجيران أمام الدار إن رأوا ابنها ((أحمد)) أن يخبروه الخبر ليلحق بها عند الطبيب، وأسرعت تحثُّ الخطى.

وصلت أم الحسن إلى المستشفى فوجدت ابنها ممدَّدًا على الفراش مستلقيًا على ظهره، ينظر نحوها بعينيه لكنه لم ينتبه لها، فوقع في قلبها الظنون، ثم تقدمت إلى إحدى الممرضات فسألتها عن ولدها ما به؟ فقالت: لا شيء، كما ترين، لكنه يخبر أنه لا يرى بعينيه وقد فحصه الطبيب فوجده فعلا كذلك، لكن لم يتوصل إلى سبب لهذا بعد!

صـــدمت الأم مما ســـمعت ثم تقدمت نحو محمد وهزته هزًّا رفيقًا ونادته، فانتبه لها وأجابها، فسألته:

-ما بك يا محمد؟ كيف حدث لك هذا؟

-خرجت من البيت يا أمي على عادتي، وبينما أنا في بعض الطريق فجأة لم أعد أرى شـــيئًا أمامي فتقدمت إلى جدار فاصـــطدمت به وســـقطت على الأرض، فأتاني أولئك الناس الطيبون وحين أخبرتهم بذلك حملوني وجاءوا بي هنا إلى ((البيمارســـتان)) المســـتشـــفى، ففحصـــني الطبيب، وأخبرته بما أخبرتك به الآن.

-وهل تشكو شيئًا في جسدك يا محمد!

كان الطبيب قد حضر في هذه اللحظة فسمع إجابة محمد لولدته وهو يقول: لا يا أمي لا أشكو شيئًا، غير أني لا أراك ولا أرى شيئًا بعيني، فعقب الطيبب قائلًا:

-أما نحن فقد بذلنا كل الأسباب التي نقدر عليها، ولا نملك غير الدعاء، فأكثري من الدعاء له يا أم محمد، عسى الله أن يستجيب لك.

ثم تابع: يمكنك اصـــطحاب محمد للمنزل، وليباشـــر أموره المعتادة، حتى لا يعطله ذلك عن هدفه، وارضوا بقضاء الله وقدره.

نهض محمد قائمًا، وســـاعدته أمه على ذلك وعادت به متجهة إلى البيت، وفي الطريق لقيهما أحمد، فعرف منهما ما كان، فبكى وهدأت أمه من روعه وصـبرته، قائلة: إن شـاء الله سـيجعل الله لنا مخرجًا.

وتابعت المسير إلى البيت يتلألأ أمامها أملها الدائم فتوقن بقرب حصـوله، ثم تنسـحب على ذلك الأمل غمامة الواقع الذي يصـور لها ابنها أمامها مريضًـا أعمى لا يرى أمامه فيشـككها ذلك في تحقيق الأمـل، وكـانـت في كـل ذلـك تقول: لا حول ولا قوة إلا بـالله، وظلـت في دعـاء وذكر ومناجاة حتى وصلوا إلى البيت.

كان أحمد يرافق أخاه محمدًا إلى الدروس حتى لا تفوته، وكانت أمهما إذا خرجا من عندها، أو حضـرا فأويا إلى فراشـهما فرشـت سـجادة الصـلاة ثم فزعت إلى ربها تسـأل حاجتها الذي يجيب حوائج الســائلين، تضــرّعت وابتهلت وبكت ولزمت باب ربّها تطرقه مناجاة ودعاء ونداء، لم تجزع ولم تقنط، قامت في الليل ودعت في النهار حتى أجاب الله دعاءها وسمع لبكائها، وكأنّما الأم المسكينة أخذتها سنة، أو غلبها النوم لشدة تعبها وإجهادها فنامت، فرأت في منامها البشرى بمعافاة ولدها وردّ الله بصـره عليه، لم تره هو معافى ينظر إليها فحسب، وقد كان ذلك كافيًا في البشــارة، لكن رأت نبيَّ الله وخليله إبراهيم عليه الصــلاة والســلام يقول لها: يا هذه، قد رد الله على ابنك بصـــره، ثمّ يعلّل لها هذا الأمر ويبين لها ســـبب تلك المنحة الإلهية بقوله: "لكثرة بكائك"، أو قال: "لكثرة دعائك ."

وهذه كرامة في طياتها كرامات لأم الحسن رضي الله تعالى عنها:

-كرامة ردّ الله بصر ابنها بعد ذهابه.

-وكرامة التجائها إلى ربها وتذللها له.

-وكرامة رؤياها خليل الله في المنام.

-وكرامة أن يكون الخليل رسول الله إليها يحمل البشرى بذلك الأمر.

-وكرامة الكشف عن كمال النهايات بعلو كعبها وكعب ابنها بتلك البدايات.

وهذا كلُّه مما يبيّن مكانتها عند الله تعالى.

عاد إلى محمد بصره وتحسن حاله وصار يخرج وحده إلى حلقات العلم ومجالس الشيوخ وكان يختلف ســـوى كُتّاب أبي حفص إلى حلقات المحدثين في بلده فجعل يختلف إلى الحلقات، وقد ظهر نبوغه عند الشـــيوخ باكرًا، فها هو يجلس عند بعض شـــيوخه بعد هذه الحادثة بقليل وله

يومئذ إحدى عشرة سنة فقط وكان الشيخ يقرأ من جامع سفيان الثوري فقال الشيخ يومًا فيما كان يقرأ للناس: سفيان، عن أبي الزبير، عن إبراهيم، فقال له ((محمد)): هذا يا شيخنا خطأ: إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم.

فزجره الشيخ وقال له: كيف تقول هذا؟

فقال محمد: أنا على يقين مما أقول وارجع إلى الكتاب الأصلي فانظر فيه هل تجده!

وبالفعل دخل الشيخ فنظر في الكتاب، ثم خرج، فقال لمحمد: كيف هو يا غلام؟

فقال محمد: هو الزبير بن عدي، عن إبراهيم.

فهز الشيخ رأسه موافقًا على كلامه ثم أخذ القلم من محمد، وأصلح الخطأ الذي في كتابه، وقال لمحمد: صدقت، هو كما قلت.. بارك الله في علمك وفهمك!

وهكذا علا صيت محمد وذاعت شهرته في الحلقات والدروس وعرفه الشيوخ والمدرسون، ولم يبق شيخ ولا مدرس في البلد إلا وأخذ ((محمد)) كل ما عنده من علم بالصبر والمصابرة والجد والمذاكرة.. وكذا فعل مع شيوخ البلاد المجاورة ومدرسيها.. وكان قد ناهز خلال ذلك السادسة عشرة من العمر.

ثم اشتاقت نفسه إلى مزيد من العلم ففكَّر في السفر إلى عواصم الإسلام الكبرى مكة والمدينة وبغداد وغيرها ليحصل مزيدًا من العلم بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ونوى أن يحدث أمه بهذا فلما فاتحها وجد منها الترحيب الشديد والرغبة المشجعة على ما نوى، وكذلك وجد التشجيع والتحفيز عند أخيه أحمد، وعلى الفور فوَّض الجميع أحمد في ترتيب الرحلة إلى مكة المكرمة مع أوَّل قافلة تعتزم الخروج إلى الحج في عامهم هذا، ولم يكن بقي على خروجه الكثير من الوقت، فبقوا يسابقون الأيام في إعداد زاد السفر وما يحتاجونه من شئون وترتيبات لرحلتهم ومع هذه التجهيزات وما قارنها من الشعور بهذا التحوُّل الجديد في المكان والمكانة عادت الأسرة تشدو ذلك الأمل العظيم وتتذكر ذلك الحلم الجميل ويطوف بأذهان أفرادها صورة الوالد ((إسماعيل)) ووصيته وأمانته التي تركها في أعناقهم، وكانت ((أم الحسن)) أكثرهم تعلقًا بتفاصيل الأحداث في الماضي والمستقبل على السواء، ولهذا كانت أنشطهم وأكبرهم حثًّا على بلوغ الهدف كأنها تسابق العمر قبل أن يسبقها الأجل.

خرج ((محمد)) مع أخيه وأمِّه في رحلة الحج، ووصلوا إلى الحجاز ((منبع العلوم الإسلامية، وموطن الرسول صلى الله عليه وسلم، ومَهبِط الوحي، ومُنزَل جبريل، ومسكن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومركز الإسلام)) مكة المكرمة بعد مدة من الزمان، فأدوا مناسك

الحج كاملة، وكانت ذكرى ((أبي الحسن)) لا تفارق الأسرة في كل موضع يذهبون إليه من الأراضي المقدَّسة؛ إذ حدَّثهم أنه في حجته لقي من كان بها من العلماء والمحدثين فسمع منهم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحينما زار المسجد النبوي سمع ممن كان منهم هناك أيضًا.. وعادت الأم تستنشق عبير الأمل الذي حدثهم به أبو الحسن يتجدد لكنه اليوم قريب أقرب من أية ساعة مضت.

وفي نهاية أيام المناسك ودعت أمُّ الحسن ولدَها ((محمدًا)) وعادت مع الرحلة برفقة أخيه أحمد، وتركا محمدًا وراءهما في مكة يتلهف للازدياد من العلم ويتشوق لملء أذنه وقلبه من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعه من المال ما يبلغه مقصده تسانده أمه وأخوه من ورائه ويسددانه بالدعاء له في سفرهما الطويل وبعده في مقامهما ببلدهم البعيدة، وتغلّب ((محمد)) على حنينه إلى أمه وتحمل فراقه لأخيه وتصبَّر على مفارقة موطنه بأنه هنا قريب من ذاك الأمل الذي لم يخبُ نوره في نفسه يومًا من الأيام، ويتلألأ أمام عينه كل حين قوله صلى الله عليه وسلم: "لو كان الدين عند الثُّريَّا لذهب به رجل من أبناء فارس حتى يتناوله."

لم يترك ((محمد)) مجلسًا سمع به في مكة إلا هرع إليه، ولم يأته الخبر بوجود أحد من أئمة الإسلام قد نزل بالبلد الحرام حاجًّا أو معتمرًا إلا زاره وأخذ ما عنده من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى حصَّل علومًا كثيرة جمَّة، حتى أيقن أنه قد فرغ من حديث أصحابها الأئمة، وسافر عنها من كان فيها من الحجاج منهم، قصد إلى المدينة النبوية وذلك بعد سنتين من البقاء في مكة، فكان عمره ثمانية عشر عامًا وهو في الطريق إليها يبغي تحصيل علوم أهلها، قضى هاتين السنتين وهو في مكة يعمل على تحصيل العلم ليل نهار، بلا ملل ولا كلل، بل بحب وأمل.

وحين وصل المدينةَ النبويةَ كان عمله فيها بالمثل من عمله في مكة، وبقي بها مدة كذلك لقي فيها أكابر الأئمة وسادة الشيوخ وعلماء الإسلام الكبار.

ومن المدينة رحل إلى عواصم الإسلام الكبرى ومراكزه العلمية المرموقة: البصرة والكوفة وبغداد والشام ومصر وكل بلد يجتمع فيها أهل الفضل والكمال من حملة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من كل ناحية، وكان في كل مرة يخرج فيها من بلد منها يودعه شيوخها وأهلها عرفانًا بعلمه وإدراكًا لفضله وتقديرًا لمكانته فإنه كان في أحيان كثيرة يفيدهم من العلم أكثر مما يستفيد منهم، فقد كتب ((محمد)) في رحلاته هذه عن ألف شيخ وزيادة فحصل بذلك علمًا لا يستغني عنه أحد.

عرف أهل كل بلد نزل فيها ((محمد بن إسـماعيل)) قدره وجلاله في العلم، لما رأوا من إقبال شيوخهم وعلمائهم عليه يسألونه ويستفسرونه ويحتاجون إليه في ضبط ما يعرفونه وتصحيح ما يعلمونـه، وكـان أهل كل بلد يقبل عليها وتترامى الأخبار بعزمه على دخولها يخرجون هم وعلماؤهم في مقدمتهم لاستقباله فلقي الحفاوة في كل رحلة ارتحلها وكل سفرة سافرها.

وكانت تلك الأخبار تصـل إلى شـيوخه في بلده وما جاورها فيفخرون به ويعدونه من مدائحهم، وما إن يحمل إليهم طلابهم شيئًا من ذلك حتى يذهبون بها إلى أمه فيخبرونها بها، فتطمئن على أن مسـاعي ولدها ذاهبة إلى تحقيق أمل والده في العمل لعزِّ الإسـلام ورفعة المسـلمين، وكانت كل حين ترسل إليه فيأتيها أو ترسل إليه أخاه أحمد فتزوده بما يحتاجه من نفقات.

ولم يزل ((محمد)) كذلك حتى أجمع أهل العلم في بلاد الإسـلام جميعًا أنه قمر ذلك الزمان وبدره الذي بعلمه يهتدي جميع أهل الحديث.

حتى إنه ذهب مرة إلى شـيخه إسـماعيل بن أبي أُوَيس فاختار من كتابه بعض الأحاديث وكتبها ليرويها عنه، فلما انتهى البخاري من ذلك قام ابن أبي أويس بنسـخ تلك الأحاديث لنفسـه، وقال: هذه أحاديث انتخبها محمَّد بن إسماعيل من حَديثي!

وكانوا يشـبهونه بمالك بن أنس فيقولون: لو أدركتم مالكًا، ونظرتم إلى وجهه ووجه محمَّد بن إسماعيل، لقلتم: كلاهما واحد في الحديث والفقه.

ومدحوا عقله وأدبه وعمله كما مدحوا علمه، حتى قال العالم الجليل قتيبة بن سـعيد: جالسـت الفقهاء والزهاد والعباد، فما رأيت منذ عَقَلْتُ مثل محمَّد بن إسـماعيل، وهو في زمانه كعمر بن الخطاب في زمانه في الصحابة، ولو كان محمَّد بن إسماعيل في الصحابة لكان آية.

وهذه الأقوال لم تكن مبالغة من أصـحابها، وكيف تكون مبالغة في شـأن رجل جمع فقه الأئمة الأربعة وجمع ما لدى علماء الإسـلام من أحاديث السـنة المطهَّرة، ثم أقبل يعمل بذلك كله، ويشتد في العمل كأن ليس يحسن غيره؟! وذلك بشـهادة شيوخه وأصـحابه وزملائه.. فهو بحق فاضل العلماء وعالم الفضلاء.

وقد ألف الإمام ((محمد بن إسماعيل)) في الحديث وعِلَلِه ورجالِه مؤلفاتٍ كثيرةً، تقدَّم فيها بهذه الفنون تقدمًا كبيرًا، وبلغ بها الغاية، وكانت عمدة لمن جاء بعده، منها التواريخ الثلاثة: "الكبير"، و "الأوسط"، و "الصغير"، و "الضعفاء"، و "المتروكين"، وغيرها.. وقد استفادت الدنيا كلها من كتبه هذه من يوم تأليفها إلى يومنا هذا.

لكن يبقى أجلُّ كتبه وأشهرها، وهو أعظم كتاب في السنَّة النبويَّة على الإطلاق، كتابه: "الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه"، الذي جمع فيه ما هو على شرطه من الحديث الصحيح، وقصد فيه إلى استنباط الفوائد والأحكام من الأحاديث، فكان أول كتاب في الإسلام اقتصر على الأحاديث الصحيحة المسندة المجرَّدة، واستغرق في تأليفه وتحريره ستة عشر عامًا، وصار أبرز كتب الحديث النبوي عند المسلمين من هذا الوقت إلى يومنا وإلى ما شاء الله حتى تقوم الساعة، فهو أصحُّ كتاب بعد القرآن الكريم.

يقول الراوي: كان ((محمد بن إسماعيل)) يومًا في مجلس عند شيخه إسحاق بن راهويه فقال إسحاق: «لو جمعتم كتابًا مختصرًا لصحيح سنة النبي صلى الله عليه وسلم، فوقع هذا القول في قلب ((محمد)) فأخذ في جمع الكتاب، ثم إنه كان ذات يوم نائمًا فرأى النبيَّ صلى الله عليه وسلم في المنام وكأنَّه جالس و((محمد بن إسماعيل)) واقف بين يديه وبيد ((محمد)) مروحة يذبُّ عنه صلى الله عليه وسلم، فلما انتبه ((محمد بن إسماعيل)) من نومه سأل بعض المعبِّرين الذين يفسرون الرؤى فقال له: إنك تذبّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الكذب، فشجعه ذلك على إخراج كتاب الصحيح.

وهكذا كان طلب إسحاق بن راهويه أولًا ثم جاءه المنام فأكَّد ذلك ومن هنا عزم ((محمد)) على تصنيف الكتاب الذي سمعه منه في حياته فقط أكثر من سبعين ألفًا من التلاميذ وانتشرت نسخه ومروياته في بلاد الإسلام كلها، وامتدت شهرته إلى جميع الآفاق، ولاقى قبولًا واهتمامًا فائقين من العلماء فأُلِّفت حوله الكتب الكثيرة من شروح ومختصرات وتعليقات ومستدركات ومستخرجات وغيرها مما يتعلَّق بعلوم الحديث، حتى نقل بعض المؤرخين أن عدد شروحه وحدها بلغ قريبًا من مئة شرح. وقد بقي هذا الكتاب حيًّا حاضرًا في حياة الناس مع امتداد الزمن حتى وقتنا هذا وما زال الناس يقرؤونه ويحفظونه ويشرحونه.

وبتأليف ((محمد بن إسماعيل)) لهذا الكتاب حقَّق الأملَ الذي ائتمنه عليه والدُه وفاز بالبشارة التي نبَّأ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان ثوابه العظيم في ميزان حسنات ((محمد)) وأبيه وأمه وأخيه وشيوخه.. رحمهم الله أجمعين.

وقد عُرف الكتابُ قديمًا وحديثًا على ألسنة الناس والعلماء بِاسم «صحيح البخاري»، لأن مؤلفه هو الإمام ((محمد بن إسماعيل البخاري)) رضي الله عنه، وأصبح هذا الاختصار لاسم الكتاب معهودًا معزوًّا إلى الإمام البخاري للشهرة الواسعة للكتاب ومصنِّفه فيقال: «صحيح البخاري» .

تمت بحمد الله تعالى